صناعةُ الكذب: قراءةٌ في تحايلات المثقّف ضدَّ ثورة البحرين

□ حسين مرهون ❖

في أيّار ٢٠١١، دعا تلفزيونُ البحرين الرسميّ، إلى أحد برامجه، ثلاثةً من أبرز ممثّلي الحركة الأدبيّة البحرينيّة الحديثة للتعليق على مواقفِ زملاء لهم ناصروا الاحتجاجات. كانت السلطاتُ قد سحقتْ، بقوّةٍ عسكريّةٍ قوامُها خمسةُ آلاف جنديٍّ، اعتصامًا دامٍ شهرًا وسط المنامة. كما أزالت بالجرّافات «دوّار اللؤلؤة،» وهو النصب الذي تحوّل إلى رمزٍ للمحتجّين شديدِ الإلهام. ولإكساب هذا العملِ الدمويّ مشروعيّته، لجأت السلطةُ إلى استعراضِ ولاءات مجموعاتِ الضغط على المسرح.

❖ كاتب وصحافي بحرينيّ، المنامة.

سألت مقدّمةُ البرنامج، بلغةٍ حرصتْ على حقنها مسبّقًا بالإدانة، عن الدوافع التي تدعو مثقّفين إلى المشاركة في تظاهراتٍ مناهضةٍ للسلطة. ثم ثبّتتْ صورةً على الشاشة تُظهر أعضاءً من «أسْرة الأدباء والكتّاب» وُسمتْ وجوهُهم بدوائرَ صفراء، فيما كانوا يصطفّون في تظاهرةٍ وراء يافطةٍ كُتِبَ عليها «نتضامنُ من أجل الحريّة.»[1]

يعرف البحرينيّون مغزى تلك الدوائر الصفراء، وهلّة ظهورها على التلفزيون في فترةٍ أُطلقت فيها يدُ العسكر بلا رادع (هناك مَن شبّه تلك الفترة، محقًّا، بفترة محاكم التفتيش في القرونِ الوسطى). أديبان على الأقلّ، ممّن أظهرتهم الصورُ في البرنامج موسومين بتلك الدوائر، اقتيدا من أعمالهم إلى غُرفٍ مظلمةٍ تعرّضوا فيها للتعذيب؛ كما جرى التحقيقُ مع عشراتٍ من المثقّفين والفنّانين، وأقيلوا من وظائفهم لدواعٍ متّصلة.[2]

أمام إلحاح السؤال، تطوّع الشاعرُ إبراهيم بوهندي، الذي شغل في وقتٍ سابقٍ رئاسةَ أسرة الأدباء، للإجابة، فلفت نظرَ المقدّمة إلى أنّ صورة اليافطة لا تحوي اسمَ «أسرة الأدباء.» لقد كان أقدمُ كيانٍ أدبيٍّ، ومتمرّدٍ، في البحرين والخليج يُفترع شعارُه، «الكلمة من أجل الإنسان،» أمام بوهندي الذي أسهم في تأسيسه عام ١٩٦٩. غير أنّ شاغلَ هنيدي كان ضمانَ سلامةِ العرض؛ فالصورة لا تحوي اسم «أسرة الأدباء» التي لم يكنْ يشغل فيها أيَّ منصبٍ ساعتئذٍ ـ وهذا كافٍ كي يطمئنّ! لكنْ حين أعادت مقدّمةُ البرنامج عرضَ الصورة، مستخدمةً تقنيّةَ التكبير (زوم)، جاء الأمرُ على خلافِ ما تصوّر، وبوغت لأنّ اليافطة كانت تحوي فعلًا اسمَ «الأسرة» ... بل شعارها، وعلّق بإنه لم يلحظ ذلك، ثم راح يدلي بمطالعةٍ ساذجةٍ حول ضرورةِ إبعاد الأدب عن السياسة، قبل أن يتساءل: «لماذا اسم أسرة الأدباءِ موجود؟!»

لغة الحضيض

شكّلتْ علاقةُ الأدب بالسياسة في سبعينيّات القرن الماضي مرتكزًا لأهمّ الحوارات الفكريّة التي انقسم جرّاءها الأدباءُ في البحرين. فبين مَن أراد تلبيسَ النصّ أمورًا خارجةً عن مجال اختصاصه، ومَن أراد الظفرَ بنصٍّ متحرّرٍ من أيّ قيدٍ خارجيّ، أُديرتْ إحدى أبرز عمليّاتِ الجدل الحرّ عند جيلٍ كان يتشكّل. على أنّها كانت إشكاليّة تدور حول النصّ نفسه، ودواخله. أما في العام ٢٠١١، فقد أُكسبت معنًى آخر، خارجيًّا، هوى بها إلى الحضيض، إذ جعلها تدور حول **صاحب النصّ**.

هكذا غدت مناهضةُ السلطات قضيّةً تدخل في مدار إدانةِ الأديب أخلاقيًّا، لا في مدار الجدلِ العميق حول أولويّات النصوص. يريد الأديبُ البحرينيّ الحريّةَ لنصّه؛ لكنْ يجري تحريمُها حين تتعدّى ذلك إلى حريّته هو في اختيار المواقف التي يمليها ضميرُه إزاءَ الشأن العامّ، وينبغي أن يستعدَّ لمواجهةِ «إرهاب» الصور المتدفّقة في حضور زملاءِ الحرفة وموافقتهم.

أما المثقفون الثلاثة الذين تطوّعوا لنزع الغطاء عن زملائهم عبر أثير الهواء، فقد كان كافيًا مقدارُ المهانة التي وجدوا أنفسَهم إزاءها وهم يدوّرون الأعذارَ أمام قصف الأسئلة. كان مظهر الروائيّة فوزيّة رشيد، وهي تحاول سوْقَ التبريرات لتعليل مشاركتها في إحدى المسيرات، مثيرًا للشفقة. فقد قالت، بعد أن أعادت تموضعها تبعًا لما آلت إليه الأحداث، «لقد خدعوني.» وحين فاجأتها المذيعةُ بوجود توقيعها على أحد البيانات، علّقتْ: «ذلك أتى من دون علمي؛ فموافقتي على وضع اسمي جاءت بعد قراءة البيان لي بواسطة الهاتف، لكنْ لم يتم إرسالُه إليّ بواسطة البريد الإلكترونيّ.» أما بوهندي فطلب مناولته نسخةً من البيان، وظلّ قرابة خمس دقائق يتأمّل اسمَه على الورقة!

تقومُ كبرى ذرائع فئات الأنتجلنسيا البحرينيّة التي منعتْ حصولَ ما دعاه كرين برينتن «انتقال ولاء المفكّرين» إلى جانب حراكِ ١٤ فبراير على محاجّتين: أ) طائفيّته، بدليل أنّ مكوّنًا واحدًا، شيعيًّا، هو الذي رمى بثقله في الساحات؛ و ب) دينيّته، بدليل أنّ صنّاع الحدث في أغلبيّتهم من رجال الدين. يرى برينتن أنّ انتقالَ ولاء المفكّرين مرحلةٌ في الثورات ترتبط بنشاطِ مجموعات الضغط التي تعمل على إفقار الطاغيةِ نقْطَ قوّته[3] ـ وهو ما لا يمكنُ الحديثُ عن حصوله في البحرين، بل واصلت النخبُ محضَ النظام ولاءَها، ولاسيّما بعد توجّهه إلى حسم الأمور بالقوّة.

وقد وجدنا من يلجأ إلى تأويلاتٍ استشراقيّةٍ لإكسابِ مواقفه المفرطةِ الولاءِ علميّةً مفقودةً. فقد تصدّى أنثروبولوجي بحرينيّ، وهو عبد الله يتيم، إلى إقامةِ مفاضلةٍ عنصريّةٍ بين أشكال الوعي الظاهرة عند شريحتين بحرينيّتين: سنيّةٍ مدينيّةٍ عروبيّةٍ صانعةٍ للحضارة، لذا فهي مندكّةٌ في النظام السياسيّ (الذي يجري الخلطُ بينه وبين مجال الدولةِ كما يصبحُ مرادفًا للوطنيّة)؛ و«شيعيّةٍ» ريفيّةٍ متخلّفةٍ موصومةٍ أبدًا بالولاء للأجنبيّ، لذا فهي خارجةٌ على ذلك النظام.[4] هكذا اطمأنّ يتيم إلى سلامةِ تحيّزاته؛ فهي، وإنْ كانت مع

---

(١) يمكنُ مشاهدة الحلقة التي بُثّت على الهواء في ١ مايو ٢٠١١ من خلال هذا الرابط: http://www.youtube.com/watch?v=qAM_SBLQl88

(٢) «عام على مكارثيّة الثقافة البحرينيّة،» http://www.bahrainmirror.com/article.php?id=2669&cid=117

(٣) كرين برينتن، **تشريح الثورة** (بيروت: دار الفارابي، ترجمة سمير الجلبي، ط ١، ٢٠٠٩).

(٤) عبد الله يتيم، «محنة فبراير البحرين،» http://bashaaralhadi.blogspot.com/2011/05/blog-post.html

النظام، انحيازٌ إلى العروبة والحضارة ضدًّا من ثورة الريف المتخلّفة! على أنّ أيًّا من ذرائعه لم يستندْ إلى «نصوص» من وحي الحدث، بل حلّ مكانَها مخيالٌ «إرهابيٌّ» صنعه إعلامُ السلطة. والحال أنّ العودة إلى النصوص هي ميزةُ الكتابة العالمة، في حين أنّ العودة إلى النماذج الذهنيّة الجاهزة هي حيلةُ الكسلان. ولقد كان شعارُ «الحكومة المنتخبة» أحد الشعارات التي رفعها فريقٌ من المحتجّين في دوّار اللؤلؤة؛ لكنّ إبراهيم بوهندي، الذي صادفَ بعد أشهرٍ قراءته كتابَ الخميني، **الحكومة الإسلاميّة** (١٩٦٦)، قال: «إنّ الإصرار على مطلب الحكومة المنتخبة، بادّعاءِ تمثيلها للشعب، يكون تحقيقُه شيعيًّا تثبيتًا لحكم الولاية الإلهيّة من خلال المرجعيّة الدينيّة.» [١] وهذا استنتاجٌ مدهشٌ يتعاور فيه «الغائبُ» البعيد على الحلول مكانَ «الشاهد» القريب؛ ذلك أنّ البرهان الذي يقوم عليه ليس أيًّا من الخطابات الكثيرة التي أدلى بها صنّاعُ الحدث في الغضون، بل محاضرات زعيمٍ إيرانيٍّ تعود إلى منتصف الستينيّات!

قول الحقّ في وجه السلطة

قد يكون نظامُ المصالح المتشابك الذي يربط السلطةَ السياسيّةَ من جهة، بكبار المثقّفين البحرينيّين من جهة أخرى، أحدَ تفسيرات غيابِ «نقدهم الودود» أو المحايد. ورغم وجود استثناءاتٍ مهمّةٍ، فإنّ أغلب مواقفِ المشتغلين بالثقافة صبّت في تدعيم مركزيّةِ السلطة المتغوّلة، وتحوّلتْ إلى أسلحةٍ بيد مُوالي السلطة في مقارعاتهم اليوميّة لأنصارِ الاحتجاجات.

لاحظ إليوت كولا فضلَ جابر عصفور في وجودِ اسم إدوارد سعيد «على كلّ لسان،» لكنّه رأى أنّ «ذلك لا يعني وجودَ أيّ فضلٍ [لعصفور] في قول الحقيقة للسلطة.» [٢] المفارقة المأسويّة التي حوّلتْ أحدَ أهمّ صنّاع الأفكار في مصر إلى مجرّدِ «قصّةٍ في تاريخ دولة الرعاية والاستدراج» تشبه عدمَ تطبيق نظرائه البحرينيين لأفكارهم.

تمثّلُ مقولةُ سعيد «قول الحقّ في وجهِ السلطة» إحدى أهمّ الرؤى في تحديد وظيفة المثقّف. على أنّ ترجمتها في حواراتِ النخبة المثقّفة في البحرين تأخذ شكل تمرينٍ ساديٍّ على «جَلْد المجتمع.» وفي حين أنّ كثيرًا من النقد الموجّه إلى المجتمع يمكنُ أنْ يُعَدَّ علامةً على العافية، إلا أنّه يبقى قاصرًا، بل جبانًا، حين يتقاعس عن وضع السلطاتِ أمام مسؤوليّاتها.

إنّ سؤالَ «لماذا يحدث هذا؟» وهو سؤال يميّز مهمّةَ العالِم عن المعالجات الصحفيّة الساذجة يتحوّل في تلك المقابلة التلفزيونيّة إلى: «لماذا الثورة في البحرين أصلاً؟» . وهذا ما يجاهر إبراهيم بوهندي به، إمعانًا في تغييب المشكلة.

هناك استقالةٌ شبهُ تامّةٍ للمثقّفين البحرينيّين من واجباتهم حيال الشأن العامّ. ويتمُّ التسويقُ لصورة المثقّف التقنيّ، المنكبِّ على حرفته؛ وهي إحدى صور المثقّف ما بعد الحداثيّ في مجتمعاتٍ ما تزال تكابدُ من دون التوصّل إلى تثبيت قيمٍ كونيّةٍ مثل حقوق الإنسان أو الحريّات. إنّ الحريّات العامّة ليست بندًا في أجندة المثقّفِ البحرينيّ؛ لكنْ حين انفجر المكبوتُ في ١٤ فبراير ارتفعت المطالعاتُ المضجرةُ لأنّه يخلو من مسحةٍ تنويريّة. لذا انتهى إلى انقسامٍ عموديٍّ حادٍّ في المجتمع. وسيوجد من يقولُ إنّه تنبّأ بالهاوية.

هكذا رأوا «الهاوية»

صاغ الشاعر قاسم حدّاد، الذي يلقى احترامًا لدى شرائحَ واسعة، موقفًا مناورًا إزاء الأحداث، يُقرأُ على الوجهين. لكنّه لقي احتفاءً خاصًّا من جانبِ موالي السلطة. وقد جاء في بيانٍ أصدره مع رفيقه الروائيّ أمين صالح، عقب أيّامٍ من سيطرة المحتجّين على ميدان اللؤلؤة: «لا نتّفق مع بعض الشعارات المرفوعة في الشارع، تلك الشعارات التي تدعو إلى إسقاط النظام، الآن وفورًا.» [٣] بعد أشهر، حين سألته صحيفةٌ جزائريّةٌ عن رؤيته التي بدت تشاؤميّةً في البيان الموسوم «هكذا نرى،» علّق بالآتي: «نحن الآن نعيش الهاوية، التي رأيناها مبكّرًا، لأنّ المجتمع وقع في مشكلاتٍ طائفيّةٍ كبيرة.» وقال: «الآن تجري مراجعةُ الحراك، كما تنبّأنا في البيان تمامًا.» [٤]

غير أنّ أحدًا منهما لا يخبرُنا عن أيّ رؤيةٍ مبكّرةٍ إلى «الهاوية» التي أودت إلى الهاوية. فالهاوية الحقيقيّة تتمثّلُ في انفجارِ ١٤ فبراير نفسه، لا في المآلات التي انتهى إليها. وهذا هو المضمر الذي أخفقَ في اكتشافه البيانُ. وهو يتّصلُ بالتزامات المثقّف إزاء الشأن العامّ، ووظيفته في التحذير منه، لا انتظاره ثم القول: «هكذا نرى»!

لقد سكتت النخبُ البحرينيّة المؤثّرة عشرة أعوامٍ عن قيام الملك بتمرير دستورٍ متخلّفٍ واصلتْ نعته بـ «المنحة.» ميزةُ الدساتير أنّها تمثّل ميثاقًا للعيش المشترك يقوم على التراضي؛ أما الواقع في البحرين فهو بقاءُ شريحةٍ ذاتِ ثقلٍ سكّانيٍّ ضاربٍ ـ والمقصود الشيعة وجزء مهمّ من

---

(١) إبراهيم بوهندي، «من جنّة الانتظار إلى جحيم الولاية،» http://www.alayam.com/artdetails.aspx?id=3555

(٢) إليوت كولا، «ثقافة الدولة.. فوضى الدولة،» http://www.bahrainmirror.com/article.php?id=5648&cid=79

(٣) قاسم حدّاد وأمين صالح، «هكذا نرى،» http://www.iraqicp.com/2010-11-21-18-08-16/1807-2011-03-03-07-12-49.html

(٤) **الجزائر نيوز**، ٢٣ يونيو ٢٠١١.

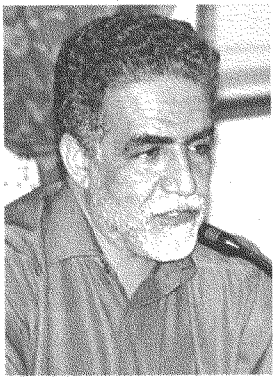
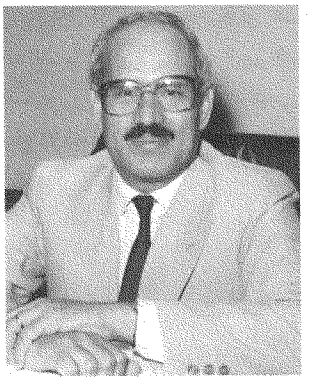
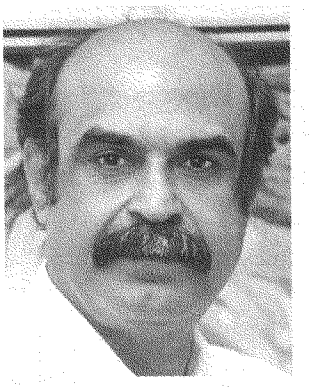
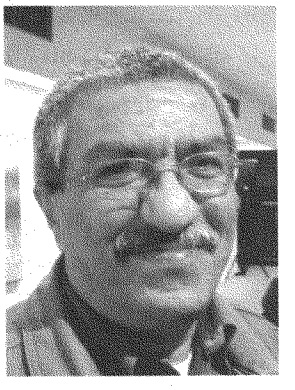

الليبراليّين واليساريّين القوميّين ـ كاتمةً على شعورِها بالخديعة. وهذا ما كان ينبغي أن يقودَ مبكّرًا إلى الرعب من احتمالات «الهاوية»؛ لكنّ، بدلاً من ذلك، عجزت النخب عن تقديمِ مقاربةٍ تفضي إلى تفتيت المعضلة، بل ظلّت تقتات على الشعارات الفارغة التي زجَّ بها الملكُ في السوق العامّة. وخلف شعارات «الإصلاح» التي أصبحتْ لوازمَ مضجرةً في خطابِ كلّ متملّقٍ يودُّ تحسينَ وضعه الماليّ، كان ثمّة واقعٌ مرٌّ من التمييز تتفشّى صورُه في جميع أجهزةِ الدولة؛ فيما أسقطت الحكومةُ مشروعين في البرلمان لتجريم التمييز.

تلك هي الهاوية التي قادت إلى الهاوية، لا المزاعم «الرؤيويّة» التي لاحظ شاعرٌ بحرينيٌّ، وهو كريم رضي، أنّها «لم تصدرْ بهذه القوّة خلال الأزمةِ بل فقط بعد اقتحامِ الدوّار.»[1] إنها واحدة من أبرز صورِ «الذرائعيّة عند المثقّف: انتظار النهاية ثم الوقوف مع المنتصر!

إحساس الموتِ... والسلامة

هاجم المفكّرُ محمد جابر الأنصاري موقفَ أدونيس من أحداث بلاده سوريا، واصفًا إيّاه بـ «اللاعبِ على الحبلين،» واتهمه بـ «تجنّب اتّخاذ موقفٍ من الصراع،» وذلك لأسبابٍ «طائفيّةٌ.»[2]. لكنّ الأنصاري، الذي يعمل مستشارًا لدى الملكِ البحرينيّ منذ استلامِه الحكمَ مطلع الألفيّة الثانية، لا يخبرنا موقفه من وجودِ ألفٍ وأربعمئةِ سجين رأي في بلاده، ولا في قيام السلطاتِ بقتل مئةِ متظاهرٍ على خلفيّةِ أحداث ٢٠١١، إضافةً إلى هدمِ أربعين مسجدًا، وفصلِ أربعةِ آلاف موظّفٍ!

لا يتوقّف صمتُ الأنصاري إزاء أزمةِ بلاده عند هذا الحدّ، بل يلتفُّ عليها بمواصلةِ رصْفِ التجريدات البائسة حول «إصلاح» يراه وحده من دون باقي الكون. بل إنّ هذا البؤس يلامس سقفَ الدجل بمطالبته دولَ «الربيع العربيّ» باتّخاذ البحرين أنموذجًا «استرشاديًّا» في الإصلاح لحلّ تناقضاتها: «في المجال العربيّ لدينا النموذجُ البحرينيّ المنبثق من المشروع الإصلاحيّ لملك البحرين حمد بن عيسى آل خليفة، حيث تَلازم الإصلاحُ السياسيّ مع الإنجاز الاقتصاديّ الذي حقّقه الملكُ لبلده ولشعبه، وبفضله تميّزتْ مملكةُ البحرين وتقدّمتْ عن غيرها.»[3] لكنه لا يقول لنا كيف يكونُ هذا النوعُ من «الإصلاح» بالذات موضعَ الإدانات الواسعة من طرفِ المنظّمات العالميّة وهيئاتِ حقوق الإنسان، بمن فيهم خبراءُ الأمم المتّحدة والدول الكبرى الحليفة للنظام.

---

(١) «كريم رضي يرد على قاسم حدّاد،» http://bahrainmirror.com/article.php?id=5634&cid=73

(٢) محمد جابر الأنصاري، «عن مثقّفٍ عربيٍّ كبير،» http://aljarida.com/2012/08/23/2012538493/

(٣) محمد جابر الأنصاري، «ملاحظات بشأن الأوضاع العربيّة الراهنة،» http://www.alayam.com/artdetails.aspx?id=5042

على دربِ الهوى ذاته، يقدّم الروائيّ والباحث عبد الله خليفة مطالعةً شديدةَ الثوريّة حيال سوريا، تغدو معها «مساعدةُ الثورة السوريّة واجبًا قوميًّا إنسانيًّا.» [1] لكنَّ لغته المفعمة بالعاطفة الحرّى حيال مآلاتِ الوضع السوريّ سيضربها البرودُ إزاء أزمةِ بلاده، إذ تحلُّ اللغةُ الساهرةُ بجلَدٍ «أسطوريّ» على قراءةِ الأجسام الطائفيّة، واقتراضها «الغيبيّ» من الوليّ الفقيه... من دون أن يخبرَنا عمّا هو «طائفيّ» في البحرين لا في سوريا، والعكس.

صاغ خليفة مقاربتين مطوّلتين أول الأزمةِ من خلال موقع «الحوارِ المتمدّن،» كشف فيهما عن معرفة، ورؤيةٍ تحليليّةٍ متماسكةٍ، وجريئةٍ، ومنصفةٍ نسبيًّا، بشأن «صراع الإقطاعيّين السياسيّ الحاكم والمذهبيّ الشيعيّ.» وحمّل رئيسَ الوزراء خليفة بن سلمان مسؤوليّةً كبيرةً عمّا آلت إليه الأوضاع، فرأى «فسادَ الطبقة الحاكمة في هذا الجمود المخيف لمجلسِ وزراءَ أغلبُه من العائلة الحاكمة.» [2] على أنّ هذه المعرفةَ تطاول المقدّماتِ وحدها، فيما تتصاغرُ في النتائج إلى رؤًى متواضعة. فكلُّ ما ذكره كائنٌ فعلاً، من فسادٍ مستشرٍ وهيمنةٍ قبليّةٍ وإضعافٍ للمجتمع، لكنّه لا يشكّل أرضيّةً مشروعةً لأيِّ ثورة. بل إنّ بعض عمليّات «الاستصلاح» الترقيعيّة قد تلغي فكرةَ الثورة عند معتنقيها أنفسهم؛ يقول على سبيل المثال: «كان وقفُ مشروع المدينة الشماليّة... نموذجًا. وكان يمكن أن يَسحبَ البساطَ من تحت أرجل التطرّف في الجماعات الطائفيّة السياسيّة» [3] ـ وهو استنتاجٌ غايةٌ في البساطة.

ثمّ إنّ نهج البحث الدؤوب لدى خليفة، الذي أسهب من خلاله في شرح الصراع الطويل بين الحواضر الريفيّة والمحتلِّ البدويّ، لن يدوم طويلاً. بل يبدو أنه أتى مرّةً واحدةً، براءةَ ذمّةٍ، ليواصل بعدها، إلى اليوم، هجمتَه على ما يسمّيه «مشروعَ ولاية الفقيه.»

في العام ٢٠١٠ حاورتُ، في مستشفى سان ميشال بباريس، الروائيَّ الجزائريّ الطاهر وطّار قبل أشهرٍ قليلةٍ من وفاته، فلفتني حرصُه على المشي في المناطق الخطرة في الجزائر إبّان الحرب الأهليّة التي اندلعتْ عقب فوزِ الإسلاميّين وإلغاء انتخاباتِ ١٩٩١ «رغبةً في تجربةِ إحساس الموت.» مقابل ذلك يجيب قاسم حدّاد، حين سئل إنْ فكّر في النزول إلى دوّارِ اللؤلؤة إبّان اشتعال الأحداث في بلاده العام الماضي: «لا، لم أنزلْ، ولم أفكّر.» [4] بين مَن يودّ «تجربةَ إحساس الموت» ومن يودُّ «السلامةَ على نفسه» تكمن مفارقةُ المثقّفِ البحرينيّ!

(الصور ص ١٠٧ لإبراهيم بو هندي. فوزية رشيد، عبدالله يتيم، أمين صالح، قاسم حداد، محمد جابر الأنصاري، كريم رضي).

(١) عبد الله خليفة، «مساعدة الثورة السوريّة واجب قوميّ إنسانيّ،» http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=319735

(٢) عبد الله خليفة، «مَن سبّب الأزمة في البحرين،» «http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=295255

(٣) عبد الله خليفة، «الأزمة العميقة في البحرين،» و«إشكاليّات تحرك ١٤ فبراير،» http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=%20246836http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=%20252014

(٤) الجزائر نيوز، ٢٣ يونيو ٢٠١١.